

المصريون يتجاوزون أزماتهم بالإبداع على خشبة مسرح الهناجر

هويدا صالح

ثمة علاقة جدلية فيها تفاعل وتجاوز بين الثقافة والفنون من ناحية وتنمية المجتمع والنهوض به من ناحية أخرى ، وهذه العلاقة التفاعلية الجدلية تحتم علينا أن نستقصي معنى تنمية المجتمع وعلاقتها بالثقافة والفنون ، وعلاقة المراكز الثقافية سواء كانت أهلية أو رسمية كحامل أساسي للثقافة والفنون ، فالتنمية البشرية والاجتماعية القائمة على أسس ثقافية وفنية في مجتمع ما تجعل هذا المجتمع يسهم في صناعة الحضارة الإنسانية ، ويشارك في حركة الأمم ، ويكون محايثا لكل تطور وتغيير. وفي أجواء الخوف على حريات الرأي والتعبير وأهمية الثقافة والفنون والآداب في مجتمعاتنا العربية التي تمر بمخاض صعب، نرجو ألا يتحول إلى قهر الحريات وتحريم الفنون والثقافة، يطراً سؤال هام وجوهري ما أهمية الثقافة والفنون والآداب في تنمية المجتمع؟ وسيظل التساؤل قائما عن مدى ارتباط التنمية المجتمعية المستدامة بالثقافة، ولا أحد ينكر دور الفنون بصفة خاصة في ترقية الذوق وتنمية الوعي كون الفنون مصدر كل تقدم وينبوع كل ازدهار، وليست نتاج أو إفرازات هامشية للتنمية. إن الثقافة لها دور كبير في التنمية الشاملة المجتمعية، دورا لا يمكن إنكاره، موازيا للبعدين الاجتماعي والاقتصادي. والتنمية شُبهت بـ " مثلث متساوي الأضلاع يعبر كل ضلع منه عن الأبعاد الثلاثة: الاقتصادية، الاجتماعية والثقافية"^(١). لكن محمد الجوهري يراها من وجهة نظر سيولوجية، فيرى أن الثقافة والفن هما وجه آخر لما هو اجتماعي، فيتحدث عن "أهمية أن تدمج الثقافة والفنون في البعد الاجتماعي أو ما يُسمى بالبُعد الثقافي الاجتماعي"^(٢).

إن استقصاء أهمية المراكز الثقافية ودورها في المجتمع يجيب لنا عن سؤال هام عن " كيفية استثمار الثقافة في سبيل تحقيق التنمية الشاملة"^(٣).

العلاقة بين دور المراكز الثقافية والتنمية المستدامة هي علاقة عضوية، وإن دور الثقافة في التنمية الشاملة هو دور أساسي، فتحسين ظروف العيش الإنساني لم يعد يترجم فقط بزيادة الدخل أو الأوضاع الاقتصادية ، بل يفرض تحسناً مستمراً لنوعية الحياة نفسها، كما يفترض تطلّعاً إلى قيم جديدة. إن الإنسان هو محور وهدف التنمية والثقافة والفن ، فالثقافة والفن يهدفان إلى بناء وتنمية الإنسان بناءً معنوياً، وفكرياً وروحياً، والمتأمل في تعريف الثقافة الذي جاء في إعلان " مكسيكو" أثناء انعقاد مؤتمر اليونسكو للثقافة عام ١٩٨٢ يكتشف أن

الثقافة هي التي تمنح الإنسان قدرته على التفكير في ذاته، وهي التي تجعل منه كائناً يتميز بالإنسانية المتمثلة والقدرة على النقد والالتزام الأخلاقي. وعن طريق الثقافة نهتدي إلى القيم ونمارس الاختيار وهي وسيلة الإنسان للتعبير عن نفسه والتعرف على ذاته والبحث عن مدلولات جديدة وحالات إبداع، وفي تعريفه للتنمية المجتمعية أكد المؤتمر العالمي للتربية الذي عُقد في جنيف في عام ١٩٩٢ أن " التنمية تعني في آن معاً التطور، التغيير في الحالة القائمة، التقدم، الإغتناء والتفتح. وتُقاس التنمية ليس فقط بازدياد الإنتاج كمّاً ونوعاً، بل أيضاً بالتحسّن الذي تحمله إلى الإنسان وإلى طريقه حياته"^(٤).

من ناحية أخرى فإن العلاقة الشائكة بين المجتمع الأهلي ومؤسسات الدولة الثقافية علاقة تبادلية، ففي مجتمعات تعاني من عدم وجود فكر تنموي بشري لا يكفي دور الدولة في العناية بالثقافة والفنون بل يحتاج الأمر لدور المجتمع الأهلي، وكذلك لا تكفي الجهود الأهلية والمجتمعية لتنمية الفرد والارتقاء بمستوى وعيه، لذا نجد أن إنشاء مراكز ثقافية سواء كانت تتبع المؤسسة الثقافية الرسمية أو المؤسسات الأهلية يسهم بشكل كبير في تنمية المجتمع، ويُعد هذا الأمر نوعاً من الاستثمار، لكنه الاستثمار في البشر، فتأثير الثقافة والفنون لا يقل بحال عن تأثير التعليم، كل منهم يساعد على إقامة بنية تحتية بشرية. والحديث عن العلاقة بين الثقافة والتنمية هو أيضاً حديث عن المستقبل، وتحديدًا مستقبل الخطط التنموية ودور الأجيال الشابة في تحقيقها. ولا غلّو في القول إن قلنا إن الثقافة تلعب دوراً حيويّاً في حركة التغيير وتنمية المجتمع عن طريق بناء المواطن الصالح الواعي والحكيم. وهنا يأتي دور ما يسمى بالسياسة الثقافية الناتجة عن تفاعل ما بين المؤسسات الثقافية الرسمية وغير الرسمية. إذن لا نجاح للتنمية البشرية إلا من خلال سياسة ثقافية تطل كلّ نواحي الحياة الاجتماعية السياسية، فمن خلال تعزيز دور الثقافة الأساسي في التنمية الشاملة تضي نوعاً من الاستقلالية التي تطمح إليها كلّ الشعوب. لا جدال أن الثقافة والفنون ليست خيارات رفاهية في مجتمعات تسعى إلى النهضة المجتمعية، بل هي خيارات رئيسية، فهي التي تميز الشعوب، وتكشف عن مدى رقيها وتمثلها لمنجزها الحضاري.

ولا نستطيع أن نقارب علاقة الثقافة والفنون بالتنمية البشرية دون أن نقارب علاقة المسرح - كتجل حقيقي للفنون بمختلف تشعباتها - بتنمية المجتمع المصري منذ العقود الأولى التي عرفت فيها مصر المسرح، ومن المهم لنا ونحن نقرأ خريطة الثقافة والفنون وعلاقتها بديوموغرافية المجتمع المصري أن نستقصي وضعية مسرح الهناجر كواحد من المؤسسات الثقافية المصرية التي تشتغل على بنية المجتمع من خلال رعاية إبداعات الشباب.

إن المسرح تعبير صادق عن الرأي العام وهو من أعرق الفنون الإنسانية التي عرفها التاريخ تدرج مع ثقافة وحضارة الشعوب عبر آلاف السنين، وهو فن جماهيري صادق يندمج فيه الممثلون مع المشاهدين في بوتقة واحدة تتحدث بلسان الشعب وخلجاته. ومن خلال عناصر العرض في النص المسرحي يستطيع الفنانون ومن قبلهم الكاتب ومعهم مخرج العرض أن يعيدوا التمثيل الجمالي للواقع الذي يعيشه المجتمع، فالفنون عامة تعيد تمثيل العالم والواقع جمالياً، ومن هنا فالمسرح يشكل صورة ثقافية لازمة لتقدم الشعوب وحضارتها ورفقيها. لذلك نرى أنه برغم اكتشاف أجهزة إعلام حديثة وقوية مثل الإذاعة والتلفزيون والسينما والصحافة وغيرها وما صاحبها من تقدم علمي مذهل، فالمسرح ما زال أداة التعبير الأصدق عن الرأي العام وكمؤثر قوى في اتجاهات الجماهير، فالمسرح كما يدوم المسرحيون على وصفه أبو الفنون، الذي يوظف كل إمكانيات الفنون من تشكيل بصري وسردي ويسنوغرافيا للتعبير عن رؤية العالم، ودعم الرسالة الأخلاقية، وتشكيل وعي المجتمع. وقد أصبح المسرح ضرورة من ضرورات التقدم والحضارة، بل من ضرورات الحياة ذاتها للشعوب فهي تعلق عليه آمالها وتعتبر - من خلاله - عن أحاسيسها وتصارع آراءها وعقائدها. أن المسرح يساير الأحداث ويواكب التغيرات الاجتماعية لدى الشعوب المختلفة، فمن دراسة المسرحيات المختلفة يمكن الوقوف على طبيعة المجتمع وعاداته وتقاليده، وكذا مشاكله ونظمه السياسية. المسرح تعبير صادق عن روح الأمة، فهو يعكس اتجاهاتها وتيارات حياتها المتباينة.

عرفت مصر المسرح منذ عام ١٨٧٠ على يد يعقوب صنوع (ابو نظارة) وتطور المسرح المصري بعد ذلك ولاقى الاهتمام من القادة والزعماء والوطنيين حتى أن الزعيم مصطفى كامل كتب مسرحية عام ١٨٩٣ بعنوان "فتح الأندلس" ليذكي بها الروح القومية، كما طالب الزعيم "سعد زغلول" من الأستاذ "جورج أبيض" أن يعنى بالتمثيل باللغة العربية بدلاً من التمثيل باللغة الفرنسية. وقد اهتمت ثورة يوليو ١٩٥٢ بالمسرح، فأقامت المعاهد العلمية لإعداد المسرحيين المتخصصين المزودين بالعلم والمعرفة والثقافة وبدراسة تاريخ المسرح على مر الأجيال حتى يستطيعوا القيام بالأداء المسرحي خير أداء، وأنشأت الثورة الفرق المسرحية المتعددة والمتنوعة، بل أنشأت الدولة المسارح المتخصصة مثل مسرح العرائس ومسرح الأطفال والمسرح العالمي والمسرح الحديث ومسرح الجيب والذي يقدم المسرحيات العالمية ذات الثقافة العالمية، كما لم تنس الدولة عنصر الترفيه فأنشأت المسرح الكوميدي والفرق الاستعراضية كفرقة رضا والفرقة القومية للفنون الشعبية واهتمت الدولة أيضاً بالمسرح الدرامي وغيره واستقدمت الخبراء من كافة دول العالم للاستفادة من خبرات الدول العريقة في

هذا المجال . بل أن الدولة المصرية عندما أنشأت التلفزيون عام ١٩٦٠ اهتمت بالمرح - من خلاله - فظهرت مسرحيات عديدة تناولت مشاكل المجتمع وحاولت إيجاد الحلول الايجابية لها، وخلقت كوادر جديدة من الممثلين المسرحيين المثقفين ساهموا في إثراء الحركة المسرحية في مصر، ولقد انعقد مؤتمر المسرح المصرى فى يناير ١٩٧٧ لعلاج مشكلات المسرح المصرى ولمحاولة إيجاد الحلول الجذرية للنهوض بالمسرح، وخرج المؤتمر بتوصيات جادة تهدف إلى تعزيز الحركة المسرحية فى مصر وازدهارها، وليس هذا بغريب لبلد لديه حضارة تمتد لسبعة آلاف سنة ويريد تعزيز مجالات الثقافة الأساسية لديه، حماية لحاضرة وتذكره بماضيه العريق، وتخطيطاً سليماً لمستقبله . كما أنشأت الدولة نقابة للمهن التمثيلية والسينمائية والموسيقية تهدف إلى رعاية الفنانين والممثلين وتقديم سبل العون الصادق لهم لتمكينهم من حسن الأداء وصدق التعبير وجودة التمثيل.

مما تقدم نرى أن المسرح أداة فعالة ومرآة صادقة للتعبير عن رأى العام وقوة لا يستهان بها فى قيادة الجماهير والتعبير عن إرادتها، وأصالتها. والمسرح قوة مؤثرة فى الجماهير قادرة على تكوين الرأى العام والتأثير فيه، وتعديل اتجاهاته وبذلك يعتبر المسرح من أعمدة أجهزة الإعلام الأساسية التى يجب أن يوجه لها كل عون وتأييد مع ضرورة توافر الحرية الكاملة للتعبير عن الآراء - من خلال المسرحيات- حتى يستطيع المسرح أن يؤدى دوره فى تنمية المجتمع وخلق وتنمية الوعى السياسى والاجتماعى لدى جماهير الرأى العام.

وهذا يدفعنا للحديث عن المسرح التنموي الذى يسهم فى تنمية المجتمع ، وهو حل يتم اختراعه بتوظيف الأشكال الثقافية والأجناس الإبداعية والشعبية المتعددة وسط المجموعات البشرية، بغية تنشيط عناصر التنمية البشرية لتوصيل بعض المفاهيم التنموية مثل البناء، التعليم، الصحة، حماية البيئة أو نشر ثقافة السلام بتوظيف القيم المختزلة داخل عناصر تلك الثقافات، تحتاج لمقدرة فكرية عالية وخيال إبداعي ثر، بالإضافة لمعرفة دقيقة بطبيعة أفكار وقيم الشعوب والمجموعات البشرية المختلفة والمستهدفة ببرنامج التنمية. ولا بد من أن يكون كل ذلك مصحوبا بموهبة درامية كبيرة. ومقدرة على تحليل وتفكيك رموز ومعاني تلك القيم والعادات، لأن المسرح التنموي يتعامل مع المكونات الثقافية المتعددة للمجموعات البشرية المختلفة، ويقدم المعرفة فى أوضح صورها ، وقد أصبحت المعرفة فى القرن الحادي والعشرين هي الأساس فى التنمية الإنسانية بما تخلقه من توسيع لخيارات الناس وتنمية لقدراتهم وتمكينهم من بناء حياة إنسانية أفضل ومكافحة الفقر والحرمان.

وأصبح الاستثمار يتركز أكثر في البحث والتطوير وتكوين الكفاءات الدقيقة والبنى الأساسية لذلك وتحتاج كل من وسائل الإعلام والثقافة لكي تؤدي وظائفها التوصيلية والتأصيلية للمعارف الجديدة القادمة من الخارج وتأطيرها وتجديرها في المجتمع ليس كسلع فقط وإنما كمنظومة قيم وتكوينات معرفية وثقافية يمكن أن تتحول مع الزمن إلى مرتكزات راسخة لإنتاج المعرفة، وإلى تنمية وسائطها المقروءة والمسموعة والمرئية وإدخال تقنيات الاتصال والمعلوماتية عليها، من أجهزة الكمبيوتر والإنترنت والأجهزة السمعية والبصرية والتي تمكنها من أداء أدوارها على نحو فاعل ومؤثر تتناسب مع حركة التغير التكنولوجي التي طرأت على القطاعات المجتمعية الأخرى.

ويمكن لقطاع الثقافة أن يستثمر التقنيات الحديثة للاتصال والربط الفضائي والإنترنت والمعلوماتية في تطوير الإنتاج المعرفي في مختلف قنواته الثقافية كالإذاعة والتلفزيون والصحف والمجلات والكتب والمسارح والمتاحف وفي إعادة إنتاج وتوظيف التراث أو الفنون الشعبية بما يسهم في الارتقاء بالوعي وخلق عائد اقتصادي.

وقد اهتمت مصر منذ عقود بإنشاء المراكز الثقافية والفنية، فلا أحد ينكر اهتمامها بالأوبرا والمسارح وقاعات عرض الفنون والمراكز الثقافية، ويُعد مركز ومسرح الهناجر من أهم المنشآت الثقافية التي اهتمت بالفنون والآداب، وساهمت بشكل لافت في تنمية المجتمع والارتقاء بالذوق العام.

وليس أدل على دور مركز ومسرح الهناجر في تنمية المجتمع المصري فنيا وثقافيا وتوعويا من مقولة شكسبير التي قالها منذ القرن السادس عشر، فقد اعترف بقيمة المسرح في أي مجتمع من المجتمعات قائلا: "إن الدنيا مسرح وأن الناس رجالاً ونساءً يجيئون ويذهبون فوق خشبة المسرح كونهم ممثلين فحسب، فالمسرح هو تعبير عن الحياة الإنسانية في كافة أشكالها ومشكلاتها ونظمها المتباينة. وبذلك فالمسرح يعد تعبيراً صادقاً عن الرأي العام يتحدث بلسانه فيعرض آماله وأفراحه وتطلعاته" (٥).

ويمكن لنا الكشف عن دور مركز ومسرح الهناجر في تنمية المجتمع المصري، ودعم الفكر الشبابي ورعايته، والتكريس لمفهوم الاستثمار في البشر من خلال قراءة ثقافية لخريطة الأعمال الفنية والثقافية التي تمت في قاعات تشكيله، وعلى شاشته ثلاثية، كذلك على خشبة مسرحه، فمركز ومسرح الهناجر سعى منذ إنشائه إلى تعزيز ودعم حركة الفرق الحرة وفرض

وجودها على الخريطة المسرحية واكتشاف جيل جديد من المسرحيين على أمل ازدهار وانتعاش الحركة المسرحية.

تم افتتاح مركز الهناجر في ٣٠ سبتمبر ١٩٩٢ وقد تبنى المركز صيغة الورشة الفنية لإعداد الممثل وكذلك ورش للتقنيات المسرحية المتخصصة كالصوت والإضاءة. وخلال السنوات الماضية أصبح مركز الهناجر واجهة ثقافية يتطلع إليها الكثير من الفنانين والمبدعين المصريين والعرب والأجانب. مما استلزم تطويره، ليواكب أحدث الوسائل والتقنيات المسرحية الحديثة في العالم. وقد عملت وزارة الثقافة من خلال " صندوق التنمية الثقافية " - الذي يدعم المؤسسات الثقافية والأفراد في مجالات الآداب والفنون - على تطوير وتحديث مركز الهناجر وتحديث كافة الأجهزة به لتحقيق الهدف المنشأ من أجله، وشملت أعمال التطوير استغلال القاعة الخلفية لعرض الأفلام " ٣٥م " والـ DVD والفيديو وإعادة صياغة القاعة متعددة الأغراض وإضافة دور علوى (صالات تدريب - مكاتب إدارية - وحدة مونتاج - حمامات) وتوفير فراغ يصلح لتنفيذ أعمال الديكور الخاص بالعروض المسرحية وكذلك إعادة تنسيق الموقع العام.

ويحتوي مركز الهناجر للفنون على قاعة عرض ومسرح صغير للعروض الحرة وقد استغرقت عملية التطوير والتحديث خمس سنوات كاملة فقد بدأ الترميم طبقاً لأحدث النظم العالمية من حيث العرض المسرحي والتأمين الإلكتروني. وقد تكلفت عملية التطوير ٣٧ مليون جنيه. وتضمنت عملية الترميم، صيانة مسرح الفنون بالمركز بأحدث وسائل العرض المسرحي، وتزويده بنظام دقيق للتأمين تنفيذاً لمطالبات الدفاع المدني، والتخلص من مادة «الاسبستوس» الخطرة التي تغطي كل أسقف المسرح وثبتت خطورتها على الصحة العامة. كذلك تم إعادة صيانة وتطوير قاعة الفن التشكيلي بالمركز لتصبح متعددة الأغراض بدلاً من اقتصرها على المعارض التشكيلية فقط، وبحيث يمكن استغلالها في إقامة الورش الثقافية المتنوعة.

وقد افتتح في الذكرى الأولى لثورة ٢٥ يناير، مما يؤكد على قدرة المصريين على تجاوز أزماتهم بوسائل مختلفة ومتنوعة، ويأتي الفن والإبداع أحد أهم الوسائل الناجعة التي استخدمها المصريون عبر التاريخ للخروج من أزماتهم ، مما يضيف إلى الرصيد الإبداعي والفني للشخصية المصرية منذ الفلاح الفصيح الذي حاول الوقوف في وجه الظلم ومحاولة توصيل الرسالة السياسية ووجهة النظر للحاكم عبر الإبداع، فترك لنا شكواه في شكل أدبي بالغ الروعة حتى أنها صارت مثلاً للفصاحة وحسن التخلص، ليس على المستوى الجمالي

للغة الخطاب فيها، بل على مستوى الخطاب الثقافي لفلاح يرفض الخضوع لابتزاز وظلم الحاكم ، وانتهاء أصغر شاب يؤدي دورا على خشبة مسرح للدولة أو لمؤسسة ثقافية أهلية.

يسهم مركز ومسرح الهناجر في إتاحة الفرصة للشباب لتقديم إبداعاتهم ومواهبهم بشكل جديد في كل شتى الفنون، التي تتناسب مع العصر الجديد الذي يتم من خلاله مواجهة كل محاولات قهر الإبداع، وتكميم الأفواه، وتقييد حرية التعبير .

وقد ساعد مركز الهناجر منذ افتتاحه في عام ١٩٩٢ على خلق حالة من الرؤية المتكاملة للفنون، حيث المزوجة بين المسرح والسينما والفن التشكيلي والموسيقى والندوات، ما خلق مزاجا عاما لقي قبولا لدى شريحة كبيرة من شباب التسعينيات، وشكل المركز تيارا فنيا ساهم في الحفاظ على كثير من القيم الجمالية و الثقافية الرفيعة، مما مكن الشباب من التعبير عن نفسه في ظل تراجع المسرح المدرسي، وعدم وجود أماكن تدعم إبداع الهواة من الشباب، وتعطيهم الفرصة كاملة للتعبير عن مواهبهم، لأن المسارح والمؤسسات الفنية والثقافية الأخرى كانت متاحة فقط للمحترفين من الفنانين والمبدعين والذين تحققت وتأكدت مواهبهم الفنية فعليا، فكان مركز ومسرح الهناجر هو المكان الذي يدعم فيه فكر الشباب المبدع ويدعم مواهبه الفنية. وليس أدل على أهمية مركز ومسرح الهناجر من تقرير منظمة الأمم المتحدة للتربية والثقافة والعلوم " اليونسكو " التي صنفت مركز الهناجر بأنه الأفضل والأهم في منطقة الشرق الأوسط وعلى ضفاف البحر المتوسط لعام ٢٠٠٠. وقد تضمن حفل افتتاح مركز ومسرح الهناجر بمعرض تشكيلي كبير شارك فيه نخبة من الفنانين المصريين، وقد عُرض في المركز ستة وثلاثون لوحة تشكيلية، كذلك افتتحت قاعة للسينما " ثلاثية الأبعاد ".

كذلك عُرض فيلم تسجيلي عن مركز الهناجر ودوره منذ إنشائه عام ١٩٩٢، والسنوات الطوال التي دعم فيها الفنون والآداب وحتى توقفه عام ٢٠٠٧ للتطوير والإصلاح، وكان عنوان الفيلم التسجيلي " الهناجر .. سنوات من الإبداع".

ثم قدم عرض مسرحي يناقش الظروف السياسية والاجتماعية التي أدت إلى قيام ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١، وقد كتب النص المسرحي للعرض محمد الرفاعي وأخرجه محسن حلمي، وقد ببطولته لطفي لبيب وآخرون، وكان عنوان النص " أهو ده اللي صار ".

الجدير بالذكر أن مركز الهناجر تحول إلى تحفة فنية ومعمارية بفضل التصميم المتميز للخضرة والإضاءة ، والمساحة الشاسعة أمامه.

مركز الهناجر ودوره في دعم المسرح المستقل في مصر

إن نشأة المسرح المصري المستقل حدثت في ظروف اجتماعية واقتصادية كانت مهياة لأن يفكر المسرحيون في إنشاء مسرح مستقل عن المؤسسة الرسمية، فقد تغيرت منظومة القيم الاجتماعية في مصر نتيجة للظروف الاقتصادية الصعبة التي أوجبت اتخاذ جملة من القرارات الاقتصادية من بيع للقطاع العام ، والتزاوج بين السلطة ورأس المال في حكومات رجال الأعمال التي سيطرت على الحياة السياسية والاقتصادية، وتأثير هذه الأوضاع الاقتصادية على بنية المجتمع المصري ، كل ذلك جعل الدولة تنصرف عن الفنون والثقافة ، تماما مثلما قال أنطونين أرتو في كتابه "المسرح وقرينه" فهو يرى أن : "العالم جائع ولا يلتفت إلى الثقافة " لذا كانت الحياة الثقافية المصرية، في ظل هذه الظروف ضعيفة ، ولا تناسب قيمة مصر التي رعت الفن والثقافة منذ عقود طويلة، لذا كان من الأهمية بمكان أن ينشأ المسرح المستقل، وقد كان مركز الهناجر منذ نشأته في ظل هذه الظروف غير المهياة للإبداع عونا للمسرح المستقل وداعما له من خلال رعاية الفرق المستقلة ، وتوفير الظروف المناسبة لها لتعرض إبداعها على خشبته. وقد وحاول المسرحيون المستقلون إيجاد حلولاً للانسداد الإبداعي في مصر في تلك الفترة، وإيجاد مساحة لطريقة أخرى و صوت آخر للتعبير. تعبير متحرر من قيود المسرح الخاص الذي يسعى في المقام الأول للربح ، وظروف مسرح الدولة الذي تحول في بعض قطاعاته إلى مجرد وظائف روتينية يؤدي فيها القانمون عليها وظيفة الموظف وليس الفنان ، كذلك طغت رقابة الدولة و قيودها البيروقراطية على مسرح القطاع العام، في ظل هذا المناخ حاول المسرح المستقل أن يبحث عن رؤى جديدة وأفكار مغايرة للمطروح في مسرحي القطاع العام والخاص ، كذلك سعى إلى إيجاد صيغ مسرحية ممييزة، ورغم أن مركز ومسرح الهناجر كان داعما رئيسا للفرق المسرحية الشابة إلا أن مهمته كانت شديدة الصعوبة، حيث أن خشبة المسرح تستخدم كمكان للتدريبات و لتقديم العروض على حد سواء، كما لم يعد يستقبل عروض شباب المسرحيين فقط ، بل فتح أبوابه لكبار المخرجين المخضرمين الذين رأوا في العرض على خشبته محاولة لإثبات أنهم يتمتعون بروح الشباب مثلهم مثل شباب الفنانين ، مما قلل من فرص الشباب على خشبة هذا المركز وفي قاعات عرضه، و من ناحية أخرى، فإن صندوق التنمية الثقافية الذي هو الراعي الحقيقي لمسرح الهناجر بنية متعددة الأنشطة ، يهتم بالحياة الفنية والثقافية في مجملها - سينما، مسرح، فن تشكيلي، مهرجانات، الخ...- هذا التعدد، و على الرغم من ضرورته، يمثل عائقا بالنسبة لمؤسسة صغيرة كهذه، فيمنعها من

أداء دور محدد فى مختلف مجالات تدخلها. و لأن صندوق التنمية الثقافية لا يملك مكانا للعرض، فقد اقتصر دوره على إنتاج العروض.

وقد قدم مركز الهناجر الفرصة لكثير من الفرق الشابة التي واصلت مسيرتها الإبداعية. كانت فرق المسرح المستقل تزيد عن ثمانين فرقة، وبفضل مركز ومسرح الهناجر تبقى منها عد غير قليل، منها : "القافلة" لعفت يحيى، "المسرح المتمرد" لهانى غانم، "معت" لكريمة منصور، "المرايا" لماهر صبرى، "اتلييه المسرح" لمحمد عبد الخالق، "الحركة" لخالد الصاوى، "المعبد" لأحمد العطار، و"الشظية والاقتراب" لمحمد أبو السعود و "المسحراتي" لعزة الحسيني، و فرق محمود أبو دومة و كريم التونسى. كل واحدة من "العبير علي و"العجر هذه الفرق تمثل اتجاهها و منحى فنيا خاصا بها. ففيها نجد المسرح النسائي، و مسرح ما بعد الحداثة، و المسرح الراقص و المسرح البصرى الخ... كل واحدة من هذه الفرق استطاعت أن تحافظ على ايقاع منتظم للإنتاج، مستخدمة طرقها و أدواتها الخاصة من أجل البقاء. ولا ننسى فرقة " الورشة " التي تُعد رائدة المسرح المستقل.

يدعم مركز الهناجر مؤسسة " شباب الفنانين المستقلين " التي تشارك في موسم وقد استضاف المركز مؤخرا عروضاً للفرق المستقلة ، بتقديم أربعة عروض مسرحية للأطفال، وهذه العروض هي: "السلطانية" و " هايدي" و " دنيتنا" و " ثورة الألوان". بالإضافة لورشتين لتنمية مهارات لاعبي العرائس والأطفال وهما ورشة لـ "المسرح الأسود" و "خيال الظل" ورشة أخرى لعرائس قفاز وأراجوز للأطفال يأتي ذلك في إطار محاولة تيار المسرح المستقل للوصول بالمسرح والإبداع للطفل إلى تحقيق إنجازات فنية تنعكس على تنمية الأفراد فنيا وثقافيا ، ويعتبر ذلك إعادة دور المسرح المدرسي، والذي يعد أساس بناء جيل واع متحضر.

المسرح المستقل تمثيل جمالي للواقع المصري الراهن :

وليس أدل على أهمية احتضان مسرح الهناجر لمسرح الفرق المستقلة من توفير الفرصة والدعم لبرنامج " ليالي الميدان " فهو من ناحية يدعم تلك الفرق حيث يقدم فيه فنانو المسرح المستقل عددا من الليالي المسرحية فى ساحة مسرحه، ومن ناحية أخرى يواكب نبض المجتمع المصري، ويوافق أحلام ورؤى الشعب، فقد خصص هذا البرنامج للتعبير عن رهانات وتحديات ثورة هذا الشعب المجيدة ، ثورة ٢٥ يناير التي غيرت نظرة العالم للشعوب العربية مع شقيقاتها من الثورات العربية الأخرى، حيث يقوم شباب الفنانين بتأليف وتمثيل وإخراج العروض المسرحية التي تعبر عن روح الثورة والتي تنتصر لشهادتها ولو عبر الفن ، فالفن كما نعرف هو تمثيل جمالي للواقع، لواقع المجتمع، وقد قدمت على خشبة مسرح الهناجر

مسرحية "حواديت التحرير" من وحي روح ميدان التحرير، وتكريما لأبطال الثورة المصرية وشهادتها.

و "حواديت التحرير" عرض توثيقى يسجل بعض أنشطة المتظاهرين في ميدان التحرير أثناء الثورة المصرية وهذا العرض جزء من نشاط أوسع لتوثيق الثورة، حيث استمر مع فرقة " سبيل " في جمع شهادات المشاركين والمشاركات في الثورة داخل القاهرة وخارجها من أجل وضعها في كتاب (حواديت التحرير) وتقديم عروض مسرحية وفيلم توثيقى عنهم. كذلك استمر فنانو المسرح المستقلون بتقديم عدد من الليالي المسرحية في ساحة مسرح الهناجر حيث قدمت فرقنا ناس" وهلوسة" عروضاً فنية تعبر عن نبض المجتمع المصري.

إن الثورة المصرية لم تكن غائبة عن اهتمام مركز ومسرح الهناجر، كما رأينا سابقاً فثورة فجرها شباب مصر، وتفجرت فيها إبداعات الشباب سواء في الأغاني التي كان يؤلفها الشباب بتلقائية وارتجال أو الشعارات التي تفتقت عنها عقول الشباب أو النصوص المسرحية التي ألقت وتم تمثيلها عن الثورة كل ذلك كان حاضراً للعرض على خشبة مسرح الهناجر ، فقد وجد شباب الثوار لهم مكاناً حقيقياً فيه . وقد أنشأ شباب المثقفين انتلافات وكيانات ثقافية ثورية، وحرصت هذه الانتلافات على أن تعقد ندواتها لمناقشة الثورة، تحدياتها ورهاناتها على مسرح الهناجر، فقد عقد انتلاف "المثقفين الأحرار" ندوة في مركز الهناجر بحضور العديد من الفنانين والمثقفين والأدباء والنقاد مؤسسي الانتلاف، لمناقشة سبل مساهمة المثقفين بصورة فاعلة في عملية التحول الديمقراطي التي تشهدها مصر حالياً، انطلاقاً من أن الثقافة مفهوم شامل، يعكس الضمير الجمعي، العقلي والوجداني للمواطنين، الذي عبر عنه الفلاح الفصيح، وبناء الأهرام، والعمال في شق القناة، والتضامن مع هدير الثورات الشعبية، والتراث الطويل، الثابت والمتطور، المرسوم والمنحوت، والمكتوب، والمسموع والشفاهي، تلك العناصر جزء أصيل من المكون الرئيس للشخصية المصرية، ذلك المفهوم الذي يتجاوز، فيض المنجز الإبداعي، وتناوله، إلى أسلوب الحياة والتمسك بقيم حضارية، تبحث عن إجابة سؤال: كيف نتقدم؟". وقد استضاف الانتلاف في الندوة شباب الثورة من حركة ٦ أبريل والجمعية الوطنية للتغيير والجهة وشباب اتحاد الطلاب بكلية الحقوق، للتواصل مع المثقفين من أجل العمل على تغيير كل المفاهيم السلبية ونشر الثقافة والمساهمة في التحول الديمقراطي في اللحظة الراهنة وإقامة جسور التواصل بين الأجيال المختلفة من المثقفين.

مسرح الهناجر يدعم فرق الجامعات والمكفوفين

يحتضن مركز الهناجر فرق التمثيل في الجامعات ، ويوفر لها فرص العرض على خشبة مسرحه ، فقد قدمت مؤخرا مسرحية " غنوة ليل " لفريق التمثيل بكلية الآداب بجامعة عين شمس بالتعاون مع طلاب من المعهد العالي للفنون المسرحية. وقد سبق وحصلت المسرحية على المركز الأول بمهرجان جامعة عين شمس للعروض المسرحية الطويلة وحصدت الجوائز الأولى للمهرجان أفضل إخراج وموسيقى وملابس وديكور، وأفضل ممثلون.

كذلك قدمت فرقة "الصامتين للأداء الحركي عرضا فنيا مميزا، على خشبة مركز الهناجر ، وهي أول فرقة في العالم للمسرح الراقص، أعضاءها من الصم والبكم، تعمل على توظيف الفن والإبداع لدمج ذوي الإعاقة في المجتمع، وقد تم تأسيسها في عام ٢٠٠٥ بمدينة المحلة الكبرى على يد الفنان "رضا عبد العزيز" مخرج ومصمم الرقصات

يتضمن الحفل تقديم عدة عروض للفرقة، بالإضافة إلى عرض الفيلم الوثائقي "نحن هنا.. الصامتون يتكلمون" للمخرجة شيرين طلعت والذي يوثق لمشوار فرقة الصامتين للأداء الحركي. كذلك تقدم الفرقة مسرحيتي "النيران الصديقة" و"كليوباترا" .

ويعد رضا عبد المعز مخرج ومؤسس الفرقة أول فنان بعد بيتهوفن يقوم باستخدام الاتصال الجسدي والعظمي (بالنقر على عظام الصم والبكم) ليشعرهم بالموسيقى عوضا عن سماعها، بعد أن قام بتطويره عن طريق النقر على الكفوف والأكتاف ليتناسب وطبيعة إعاقة أعضاء فرقته.

وحققت "الصامتين" نجاحات في الاحتفالات القومية والمهرجانات الدولية التي شاركت بها داخل مصر وخارجها، وتعمل الفرقة من خلال عروضها على نشر ثقافة السلام ونبذ العنف واحترام الآخر، ومناهضة العنف ضد المرأة والطفل والأقليات واحترام حقوق الإنسان. كما استضاف المركز فرقة أخرى لشباب المسرحيين من المكفوفين ، وهي فرقة " الشروق" للمكفوفين وتجربة هذه الفرقة مميزة أيضا، فجميع أعضائها من المكفوفين ، و يودون الحركات المسرحية التي يؤديها الممثل العادي، وما يزيد من الصعوبة أنها لا تتبع أي جهة رسمية و لا تتلقى أي دعم مادي من جمعيات أو أشخاص وتقدم كل أعمالها المسرحية بالجهود الذاتية. يتزايد الاهتمام حاليا بتحسين أوضاع المعاقين بما يتناسب مع حجم هذه الشريحة، ولأجل تعويض ما فاتهم من إهمال ونسيان، وهذه التجربة هي تفاعل ثقافي بين شرائح المجتمع المختلفة، ويجب أن يتم تقييم التجربة علي هذا الأساس، وهذا التقييم يجب أن يرتكز علي جدوى وأهمية ما يقدمه الفريق لإثراء الحياة الثقافية بشكل عام والمسرحية علي وجه

الخصوص، شأنها شأن تجارب مسرحية طليعية أخرى تستشرف مجالات جديدة للتعبير
الدرامي. وقد قامت فرقة الشروق بإعادة تقديم مسرحية (على جناح التبريزي وتابعه قفة) على
خشبة مسرح الهناجر .

الورش الفنية في مركز الهناجر

ولأن سياسية واستراتيجية الإنشاء لمركز الهناجر تنبني على رعاية الورش الفنية ، فقد اهتم
المركز بتقديم الدعم اللازم للورش الفنية المختلفة ، فعلى سبيل المثال قدمت فرقة "أنا
الحكاية" على مسرح مركز الهناجر عرض مسرحيا بعنوان "ببساطة كدة" والعرض من
إخراج ريم حاتم. وقد أدهش العرض جموع الحضور لتناول ثرة ٢٥ يناير ، وقد امتزج في
حكايات هذا العرض الواقعي مع المتخيل.

وقد بدأت ورشة "أنا الحكاية" في عام ٢٠٠٩ بفكرة أساسية، ألا وهي استلهام كلاسيكيات
الأدب المصري من أجل كتابة نصوص جديدة تتقاطع مع النص المُلم، تُبني عليه، تختلف معه
أو تتخذه متكاً للانطلاق إلى آفاق جديدة. ويشارك في ورشة "أنا الحكاية" كاتبات وكتاب من
أجيال مختلفة يشتهون مع نصوص عظيمة وكتاب كبار هادفين طوال الوقت إلى إنتاج كتابة
تتقاطع فيها الأزمنة والأفكار. يكتبون وكلهم أمل في تحفيز القارئ لكي يعيد التفكير في منظومة
أفكاره ، ويستمتع ويشاهد عروض الحكى ، ويراجع قناعاته ومسلّماته عبر تسريد ذوات
الكتاب والكاتبات أمامه مباشرة وبشكل حي.

كذلك تقام في قاعات المركز المخصصة للورش الفنية مشروع كورال عبارة عن ورشة عمل
مفتوحة، تختار كل مرة موضوعا مختلفا، ويمارس فيها الأطفال اللعب و الارتجال عن طريق
التأليف (الجماعي) و التلحين (الجماعي)، وفي هذا المناخ الفني التلقائي يتعلم الأطفال
والشباب سرعة البديهة وتنمية الخيال، والقدرة على الارتجال، وفي النهاية يقومون بإنتاج
عدد من الأغاني، وتكون مدة كل ورشة من ١٠ إلى ١٥ دقيقة.

كذلك تقام في مركز الهناجر ورشا فنية لتعليم التمثيل حيث يتدرب فيها الشباب علي مستوى
التمثيل والكتابة المسرحية والإضاءة وما شابه ذلك وأصبح المشاهد لديه حس من خلاله
يستطيع التفرقة بين الجيد والهزيل من الأعمال ، كما تقام الورش الفنية التي يتعلم من خلالها
شباب المسرح المستقل التمثيل ، ويدرس لهم كبار المخرجين علي مستوى الوطن العربي
وأوروبا.

الصورة وتجلياتها الفنية فى مركز الهناجر

ولأننا فى عصر الصورة ، سواء كانت الصورة البصرية التشكيلية أو الصورة البصرية السينمائية والتلفزيونية فقد اهتم مركز الهناجر بتقديم تجليات بصرية متعددة لرواده وجمهوره ، فقد قدمت مؤسسة "بروهلفتسيا " المؤسسة الثقافية السويسرية بالقاهرة على خشبة مسرح الهناجر مشروع " أم كلثوم ديجيتال.. أم كلثوم لا تنتهي " وهو عرض موسيقى وفديو (وسائط متعددة) ويشمل العرض حفلاً موسيقياً مع عرض فديو (مالتيميديا) يهدف لتقديم تصور معاصر لأعمال سيدة الغناء العربى أم كلثوم. كذلك قدمت سلسلة من أفلام الفديو يعرض فيها صوراً لمجموعة من المصريين ويتناول علاقتهم بموضوعات أغاني أم كلثوم - مثل فقد والحب والحنين - فى حياتهم اليومية الحالية، بينما قدم تصوراً موسيقياً (الكترو أكوستيك) لأغاني كوكب الشرق

أثار العرض بعض التساؤلات منها: "كيف كانت أم كلثوم ستتعامل مع التكنولوجيا الحديثة فى موسيقاها؟" فهو مشروع تجريبي يهدف لإبداع قوالب جديدة وخلق نماذج معاصرة من تراث أم كلثوم الموسيقي

كذلك شهد مسرح الهناجر عرض أول أوبريت ديجيتال فى مصر والذى استغرق مدة تصل إلى ٧٥ دقيقة وهو مسرحية "إيزيس مونا مور" والذى يدور موضوعها حول فانتازيا موسيقيّة تستلهم أسطورة إيزيس بشكل معاصر فى الزمن الحديث. يشارك فى المسرحية ما يقرب من ٢٠ شاباً من الفنانين والموسيقيين وقد اعتمد مؤلف المسرحية محمد أبو السعود على كتاب " الخروج إلى النهار " المسمى خطأ " كتاب الموتى " وقد استلهم منه المؤلف فكرة البعث لإيزيس من أجل تحقيق الحرية والعدالة التى يفنقدها المجتمع المصرى، ولا يخفى على القارئ الواعى أن الإسقاط النفسى على الواقع يكشف عوار الواقع الردى الذى يفنقده فيه الإنسان المصرى رجلاً كان او امرأة للعدالة الاجتماعية التى لم تتحقق ، وكذلك للحرية التى يخشى على ضياعها فى ظل أفكار تروج للإعادة القهر والاستبداد.

كما تشهد قاعة السينما بمسرح الهناجر عروضاً متنوعة ومختلفة لعدد كبير من الأفلام سواء المصرية أو الأجنبية ،القاعة مفتوحة للمبدعين والفنانين ،والعروض لا تقتصر على نوعية محدد من الأفلام ، بل يتم التنوع فى الاختيار، ليشمل كافة الأنواع، ولا يتقاضى مركز الهناجر أى مقابل مادي من الجمهور الذى يؤم هذا المركز، سواء العروض المسرحية أو الأفلام السينمائية ، وتحرص إدارة المركز على ألا تكون قاعات عرض الفنون وغيرها نخبوية ، بل تحرص على تشجيع الجمهور العادي من عامة الشعب على الحضور والمشاركة ، وقد أنشئت

السينما في مسرح الهناجر خلال التجهيزات الأخيرة التي شملها مسرح الهناجر للفنون، وقد طُرحت فكرة أن يكون ثمة مقابل مادي لدخول العروض السينمائية، وأن يكون هذا المقابل رمزياً.

كذلك يتم كل أسبوع سهرة سينمائية لأحد الأفلام المتميزة، في قاعة السينما المخصصة لتلك العروض، ويقوم ناقد فني بالتعليق والشرح والنقد لجماليات الفن، سواء النص السردي وقصة الفيلم، أو الإضاءة والديكور والتمثيل والإخراج، وجماليات الصورة الفنية، ثم يُدار نقاش مع الجمهور.

البعد العربي على خشبة مسرح الهناجر

كذلك كان البعد العربي حاضراً وبقوة على مسرح الهناجر، فقد أقيمت احتفالية كبرى، حيث تم افتتاح المهرجان العاشر للمسرح العربي والذي استمر ١١ يوماً واستقبل أربع فرق من العراق بالإضافة إلى الأردن والسعودية والمغرب وتونس وليبيا وقطر، وقد تكفلت إدارة المهرجان بواجب استضافة الفنانين من هذه الدول العربية المختلفة، كما يشارك في رعاية المهرجان الجمعية المصرية لهواة المسرح التي اشهرت منذ ثلاثين عاماً قدمت خلالها ٢٠ مهرجاناً متنوعاً ومتخصصاً حيث قدمت أربعة مهرجانات لفن المونودراما، كذلك قدمت أول مهرجان للمسرح الضاحك في عام ١٩٩٤، واهتمام إدارة مركز الهناجر بالبعد العربي إنما يؤكد على فكرة الهوية والثقافة والقضايا المشتركة. ويذكر لمسرح الهناجر أنه أثناء الصراع بين العراق والكويت في التسعينيات استضاف المسرح فنانين ونجوم المسرح من الدولتين الشقيقتين، ومن خلال الفن تم التأكيد على الهوية الثقافية والبعد العروبي والإنساني من خلال مصافحة واحتضان هؤلاء الفنانين لبعضهم، وهذا يؤكد على أن ما تفسده السياسة يستطيع الفن أن يصلح. ولجنة التحكيم لهذا المهرجان تتكون من فنانين مصريين وعرب لاختيار أفضل عرض هواة مصري، أما باقي العروض العربية فهي تشارك بشكل شرفي دون الدخول في المسابقة الرسمية. وكان عنوان المهرجان هو "مسرح الثورات والربيع العربي" وتم فيه تكريم فنانين من المغرب والعراق وليبيا والأردن وسورية والكويت وتونس والسعودية وقطر. الجدير بالذكر أن العروض المصرية المشاركة في المهرجان اختارتها لجنة مشاهدة ضمت نخبة من نقاد المسرح في مصر شاهدت ٢٧ عرضاً حياً، بالإضافة إلى ٢٢ عرضاً مسجلاً من خلال الأسطوانات المدمجة وهي تمثل فرق هواة عمالية وجامعية، ومن طلاب المدارس وفرق الأقاليم ومراكز الشباب، بالإضافة إلى فرق تكونت من خلال شبكة التواصل الاجتماعي فيس

بووك وهي كلها عروض منتجة بالاكتفاء الذاتي من الهواة الذين أحبوا فن المسرح وآمنوا برسالته. وهذا يؤكد على البعد التنموي المجتمعي لمركز ومسرح الهناجر .
في النهاية يقدم مركز ومسرح الهناجر خدمة فنية وثقافية تسهم وبشكل فعال في بناء المجتمع المصري وتنمية العنصر البشري ، واحترام المكونات الثقافية المتعددة في المجتمع المصري ، ودعم شباب الفنانين ورعاية المواهب. لقد قدّم مركز الهناجر عدداً كبيراً من الوجوه المميزة في التمثيل والإخراج والديكور وغير ذلك من عناصر الإبداع المسرحي. ويحاول المركز أن يقدم رؤية متكاملة للفنون وصيغة للمزاوجة بينها، كذلك عمل على تشكيل تيار فني في مصر ساهم في الحفاظ على القيم الثقافية الرفيعة.

-
- ١ - محمد سيد محمد. الاعلام والتنمية - دار الفكر العربي - القاهرة - ١٩٨٨ ص ٢٢ - ٢٥.
 - ٢ - محمد الجوهري - علم الاجتماع وقضايا التنمية في العالم الثالث - دار المعارف - القاهرة ١٩٧٨. ص ٦٩.
 - ٣ - خبراء الأونيسكو - التنمية الثقافية: تجارب إقليمية - منشورات الأمم المتحدة. ١٩٨٢. ص ٥.
 - ٤ - مطانيوس الحلبي - عن الثقافة والتنمية". محاضرة في مجلس الفكر - . ١٩٩٥ - ص ١١٠.
 - ٥ - نهاد صليحة - أضواء على المسرح الإنجليزي - مكتبة الأسرة - القاهرة - ٢٠٠٨ ، ص ٤٥.